Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأديب المبدع وينال من قدرته على تنشيط المتلق وإثارة انتباهه – واكتشاف لغة خاصة سيكون باستطاعتها أن تدل على – وليس تعبرّ عن – العالم الخاص لتجربة المبدع ، ولكن لن يكون باستطاعتها ، بما هى لغة مسرفة الخصوصية ، أن تؤثر فى الآخرين بالقدر الذى يرضى طموح الفنان ، حيث غابت الأصول المشتركة والدلالات الأليفة أو غاب أكثرها ، ومن ثم استحال التوصيل . يقول القاضى الجرجانى – فى إطار قضية عصره ، ودعواه أن المحدثين أحق بالإكبار :

« ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحق بالاستكثار ، وصغيرهم أولى بالإكبار ، لأن أحدهم يقف محصورا بين لفظ قد ضيّق مجاله ، وحذف أكثره ، وقل عدده ، وحظر معظمه . ومعان قد أخذ عفوها ، وسبق إلى جيدها ، فأفكاره تنبث فى كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فإن وافق بعض ما قيل ، أو اجتاز منه بأبعد طرف ، قيل : سرق بيت فلان ، وأغار على قول فلان . ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ، ولا مر بخلده ، كأن التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن ! وإن افترع معنى بكرا ، أو افتتح طريقا مبهما لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب ، وألذه فى السمع ، فإن دعاه حب الإغراب وشهوة التنوق إلى تزيين شعره وتحسين كلامه ، فوشحه بشىء من البديع ، وحلاه ببعض الاستعارة قيل : هذا ظاهر التكلف ، بين التعسف ، ناشف الماء ، قليل الرونق . وإن قال ما سمحت به النفس ورضى به الهاجس قيل : لفظ فارغ وكلام غسيل ، فإحسانه يتأول ، وعيوبه تتمحل ، وزلته تتضاعف ، وعذره يكذب »[٢] .

إن الربط بين اللفظ الذى ضيق مجاله والمعانى التى أخذ عفوها ، وبين البديع والاستعارة – وقد اعتبرت منه إلى وقت متأخر – ينم على وعى صحيح بدور الكلمة فى التعبير الفنى ، إنها « معنى » قبل أن تكون « لفظا » ، ووضعها فى علاقة لفظية جديدة يعنى تلقائيًّا اكتشاف معنى جديد ، يتجاوز مجرد الألفاظ إلى كل ما تدل عليه علاقات الألفاظ من عقائد وأعراف وأساطير وأحلام ، وكل ما توحى به من إيقاعات صوتية وتوافق واتصال ، أو تخالف وانقطاع ، أو مفاجأة واحتباس .

وقد تأخر اكتشاف وتحديد المصطلح البلاغى « المجاز » ، وطال ترديده بمعنى الطريقة فى التعبير ، هكذا استعمله أبو عبيده (٢١٠ هـ) ومن لف لفه من أصحاب دراسات مجاز القرآن

---

(٢) الوساطة ص ٥٢ .